بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

الاسكندر والفرس

دوّخ ملوك الفرس جميع اقطار العالم المعمور ، فدانت لهم العباد . وكان الفينيقيون في طليعة انصارهم ، فما قاموا بحملة بحرية ، ولا اشتبك القتال بينهم وبين اليونان على سطح المياه ، الا كان للمراكب الفينيقية القسم الاوفر في اسباب الغلبة والنصر .

على ان المدنية تعمل ما لا يعمل السيف . فان الفينيقيين ، على انتصارهم لملوك الفرس ، كانوا على اتصال دائم بالشعوب اليونانية ، يتلقنون عنها طرق التمدن ، واساليب الفن . ومنذ القرن الخامس قبل المسيح ، يرى المرء تأثير الفن اليوناني في الصناعة الفينيقية ، وكفانا ادلة على ذلك ما نراه في اكثر نواويس ذاك العهد . فسواء كان في صيدا ، او في جبيل ، او في غيرهما من المدن الساحلية فاننا نرى الناووس الرخامي منحوتاً على شكل المومياء المصرية الّا رأس الميت فهو ظاهر على الطرق اليونانية . ومن هذه النواويس العدد الكبير في متحف بيروت ، ومتاحف اللوفر ، والقسطنطينية ، ومجموعة فرود وغيرها .

ومن مظاهر التأثير اليوناني ايضاً ان ستراتون ملك صيدا في القرن الخامس قبل المسيح ، كان يلقب بفيلهيلين اي محب اليونان وكفانا بهذا اللقب دليلاً على ما كان لليونان من النفوذ على اهل فينيقية في ذلك العهد .

فلو اردنا بالاختصار وصف حالة فينيقية في القرنين الخامس والرابع قبل

المسيح ، لقلنا فيها انها نصيرة الفرس في الحرب ، وتلميذة اليونان في الفن والفكر .

ولقد طال ملك الفرس وتمددت انتصاراتهم ، وقويت شوكتهم ، حتى ظنّ الناس ان لا نهاية لسلطانهم ، ولا قوة في الارض تسطو على قواهم . ولكن

هي الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

وقد ظهر بطشها وفتكها بقيام الاسكندر المكدوني ، وطموحه الى عرش فارس . ولكن من كان المكدوني هذا ؟ وما كان مقامه ازاء اولئك الملوك ، وفي قصورهم من الامراء من كانوا اعظم شأناً من امير مكدونية وارفع قدراً ، وكانوا يتسابقون للتشرف بخدمة داريوس ، والتذلل امام جبروته . على ان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء . فسلم يطأ الاسكندر ارض آسية الا تقدّمه الحظ ؛ فقاده من ظفر الى ظفر . وما هي الا اقل من السنتين حتى احله في كبادوكية . وكأن نجمَ الاسكندر اراد مداعبته والدلال عليه . فبعد حمام في النهر ، اصابت الاسكندر حمى خبيثة كادت تكون القاضية . فطارت البشرى لعدوّه داريوس . فظن هذا ان فيها نصراً مبيناً . فقام بجحافله وفرسانه ينتهز الفرصة ليقضي على المكدوني . ولكن مرض الاسكندر كان اشبه براحة الاسد وتحفزه قبل الوثوب . فما اخبرته الجواسيس أنّ داريوس قام اليه بجيش عرمرم حتى حمد الالهة ، وقام يسابقه الى مضايق سورية . وقد رأى في اسوس (وموقعها على خليج الاسكندرونة) خير ميدان للنزال : البحر من جانب ، والجبل من آخر ، وبين الاثنين مجال يضيق على جيش داريوس وفرسانه فيستحيل عليهم التقلب فيه .

غلب الفرس على امرهم فتبدد شملهم وانهزم ملكهم داريوس يسابق الرياح على اكرم الجياد ، وقد ترك في ايدي العدو أمه ، وزوجته ، وارلاده ، ودعيت هذه المعركة بوقعة اسوس ، وحدثت في تشرين الاول من سنة ٣٣٣ قبل المسيح .

هذا ما كان من امر داريوس . واما الاسكندر فبدلاً من ان يلحق بالعدو امر جيوشه بالزحف على فينيقية ، كي يمتلك ملاجئ الاساطيل الفينيقية ، ويأمن شر عدوّ يغدر به من الوراء .

وصول الاسكندر الى صيدا

وما زالت المدن الفينيقية الكبيرة كارواد ، وعمريت ، وجبيل ، تخضع له الواحدة تلو الاخرى ، حتى اطل جيشه على صيدون.

وكانت صيدا وقتئذٍ في اوج مجدها. وقد جعلها حاكم سورية الفارسي قاعدة لحكمه. وبنى فيها قصراً على النسق الفارسي ؛ خطّاه غبار الزمن الى ان وجد العالم الاثري دينان (Dunand) بعض اعمدته تكلّل رؤوسها الثيران الراكعة ، فاتى بها دار الآثار في بيروت . وكان الاميركان قد وجدوا ما شابهها ، ولا تزال هذه الرؤوس في مجموعة فورد في صيدا.

ولما وصل الاسكندر الى صيدا ، كانت المدينة تخضع لملك يقال له شتراتون، وربما لخص هذا الاسم عن «عبد عشتروت». وشتراتون هذا حليف لملك الفرس ، أمين له ، فابى ان يخون مولاه داريوس ويسلم المدينة . ولكن الشعب الصيداوي ، وكان يكره الفرس ويفضل اليونان عليهم ، اجبر الملك على ان يسلم المملكة للاسكندر الفاتح ، ويتنازل عن الملك ، ففعل مكرهاً. وكان للاسكندر اخ بالرضاعة يدعى افستيون ، فطلب منه ان ينتخب ملكاً على صيدا من يراه جديراً بذلك . وكان افستيون قد نزل ضيفاً على اخوين من اعيان البلد ، فعرض عليهما ان يقبلا التاج. ولكنّ نفسها الابية هابت ان تتحلى بما لا حقّ لها به ، فشكرا لطف افستيون ، واجاباه انّ العادة جرت في بلادهم ان لا تعطى السلطة الّا لمن كان من العائلة الملكية. فدهش افستيون لما رأى بهما من الشهامة ، وقال لهما: «ايها الرجلان الابيّان يا من فهمتما انه اشرف للمرء رفض تاج الملك من قبوله ، اليس لديكما رجل اعطيه السلطان ، فيذكر انكما توجتما رأسه ؟» فافتكر الشابان حيناً وقد فقها خطورة الحال ، لاسيما وقد نظرا جمهور المتزلفين لافستيون يزداد يوماً فيوماً طمعاً بالعرش . فقالا لضيفهما : لا نرى احدر بالعرش من رجل يقال له «عبدولونيم» ، وهو من افراد الاسرة الملكية. وقد اخفى الدهر عليه ، فبات يشتغل في بساتين صيدا كعامل مأجور . فاسرعا

افتيون باحضاره. فجدّ الاخوان في طلب عبدلونيم حتى وجداه في احد البساتين وهو بحالة يرثى لها، فقال له احدهما: «دَعْ عنك هذه الثياب القذرة، وليكن لك قلب الملوك». فظن عبدلونيم انها يهزءان به وأنبهما على ذلك. ولكنهما طيّبا خاطره وخلعا عليه الوشاح الملكي.

وما طار الخبر في صيدا حتى التفّ جمهور الحسّاد حول الاسكندر وجعلوا يثنون على عبدلونيم. فارسل الاسكندر في طلبه، وحين امتثل بين يديه قال له الاسكندر: «ارى ان ملامحك تدلّ على اصلك الرفيع، فهل لك ان تشرح لي كيف تسنى لك الصبر على بؤسك؟» فاجابه عبدلونيم: «ليت الالهة ترزقني الصبر ذاته لأتحمّل مشاقّ المجد الذي رفعتني اليه!» فاعجب الاسكندر بجوابه، وامر باعطائه جميع كنوز الملك المخلوع شتراتون. وانعم عليه بقسم مما غنمه من الفرس، ووسع نطاق مملكته، فكان له خير الصديق.

وقد نقل الينا الكاتب الروماني كوانتوس كورسيوس خبر فتح الاسكندر للبلاد الفينيقية، وروى بتفصيل حادثة احتلاله صيدا وجعله عبدلونيم ملكاً عليها.

ناووس الاسكندر

مضى على ذاك الحادث اكثر من عشرين قرناً. واذا بحسن الحظ يفتح منارة في بساتين صيدا، فيأتيها الاثري التركي حمدي بك، ويستخرج منها عدداً من النواويس الرخامية وغيرها ينقلها باجمعها الى الاستانة حيث بُني لها متحف خاص.

وصفه

وبين هذه النواويس ناووسٌ من الرخام الابيض يعدُّ اليوم من اجمل تحف الفن اليوناني لِما عليه من بديع النقش عُرف «بناووس الاسكندر». وهو مستطيل الشكل، له غطاء ذو جهتين مثلثتي الزوايا، حفّته على جميع جوانبه رؤوس الحيوانات والاشخاص مربضت على اطرافه الاربعة اسود فاغرة افواهها. وقد احاط بهذا الغطاء افريز من ورق العنب يدهش العقول لقربه من

صورة الورق الطبيعية حتى كانه رسم لها. ويرى المطالع ذلك في الرسوم الاول، والثاني، والثالث.

وعلى احد جوانب الناووس الكبرى نقوش تمثل وقعة انسوس في غاية احتدامها: فيرى المرء الاسكندر متقبضاً رأس الاسد الدالّ على ان المكدوني سليل الاله هرقل (الرسم ٤). وقد وثب جواد الاسكندر فوق جثة قتيل فارسي، فهجم على خيّال من الفرس خرّ به حصانه صريعاً. وامام هذا الفارس ستة عشر مقاتلاً بين فرسان ومشاة يقتتلون جموعاً او افراداً.

وعلى الجانب الثاني الكبير مشهد صيد الحيوانات الضارية، وفي منتصف المشهد اسد يهاجم حصان خيّال فارسي (الرسم ٥) وقد لكز الاسكندر جواده مسرعاً لاغاثته، ووراءه الحشد من فرس ويونان. وكلاب الصيد تتراكض للهجوم على الاسد. وعلى شمال الناظر يوناني وفارسي يهاجمان ذكراً من الايل يشهق جزعاً. وقد اندفع يركض.

وعلى جهات الناووس الصغيرة مشهد صيد الفهد، ومشهد قتال بين الفرس واليونان.

وقد طلي هذا الناووس باجمل الالوان، فعلاوة على ما في النقش من الحياة والحركة، ترى في نظر الاشخاص ما يزيدهم حياةً ويدفع الى العجب.

وقد تساءل العلماء في اصل هذا الناووس أهو من صنع الفينيقيين ام اليونان؟ ففيه من الفنّ اليوناني ما لم يأتِ به احسن ارباب فنهم مما لا يسمح لنا بالقول انه من صنع الفينيقيين، وهم لم يتفوّقوا على اليونان بأمر الفنّ. ولكن كيف يكون هذا الناووس من صنع بلاد اليونان وقد نقل منها الى صيدا، ولم يتحطّم منه اقل نقش مع كثرة الاشخاص النافرة؟ فالرأي الراجح هو إما انه كان في صيدا من العمال من تتلمذ لليونان، واخذ عنهم، فعادلهم بفنه. واما — ولعله الارجح — ان يكون ملك صيدا اتى مدينته بارباب الفن اليوناني. ومن العجب ايضاً ان هذا الناووس ليس وحيداً في بابه، بل هناك مما حمل الى الاستانة من النواويس ما اتقن صنعه ووفاق جماله، وان لم يعادل ناووس الاسكندر جمالاً.

ما يرمز اليه

بقي علينا ان نذكر ان هذا الناووس نُسب للاسكندر ، لا لأن المكدوني دُفن فيه ، بل لان في مشاهده رسوماً عديدة للاسكندر . وقد اجمع العلماء على ان هذا الناووس جعل مدفناً لعبدولونيم الذي توّجهُ الاسكندر ملكاً على صيدا . وذلك لان احد المشاهد يمثل حرباً بين اليونان والفرس ، والمشهد الآخر يمثل الفرس واليونان متآخين في صيد الوحوش . فالراجح ان عبدولونيم ملك صيدا اراد ان يذكر بذلك ما كان بين الفينيقيين واليونان من العداوة ، وانهم اشتركوا مع الفرس في معركة اسوس ؛ او انه اراد ان يذكر انتصار الاسكندر الباهر في معركة اسوس . وعلى الجهة الثانية مثل ما اولاه الاسكندر من الصداقة معبراً عن ذلك بمشهد صيد اشترك فيه عبدولونيم مع الاسكندر وحاشيتها في مطاردة الوحوش الضارية كالاسد ، والفهد ، والايل .

وقد اسعدني الحظ برأى هذه التحفة لا بل التحف البديعة ، نظراً لما في كل شخص من الشكل المختلف عن الشخص الآخر . ومع شكر الاقدار التي سمحت لي بدرس هذه البدائع عن قرب في متحف القسطنطينية ، لم يسعني ان انظر اليها الا وفي القلب غصة حين افتكر ان تحفنا ، كخيرة شبابنا ، قد هجرتنا الى بلاد الغير .

(المشرق) يشاطر حضرة الكاتب اسفه لفقد تلك الروائع الفنّية ، ويرجو من حكومتنا العزيزة ، وقد برهنت مرّات عديدة عن رغبتها في تعزيز الفنّ ، ان تتفضل وتطلب من حكومة انقره ان تعيدها ، هبةً او بيعاً ، قالباً عن تلك النواويس اللبنانية المصدر ؛ فتزيّن بها المتحف اللبناني ذاكرين معتبرين . . .

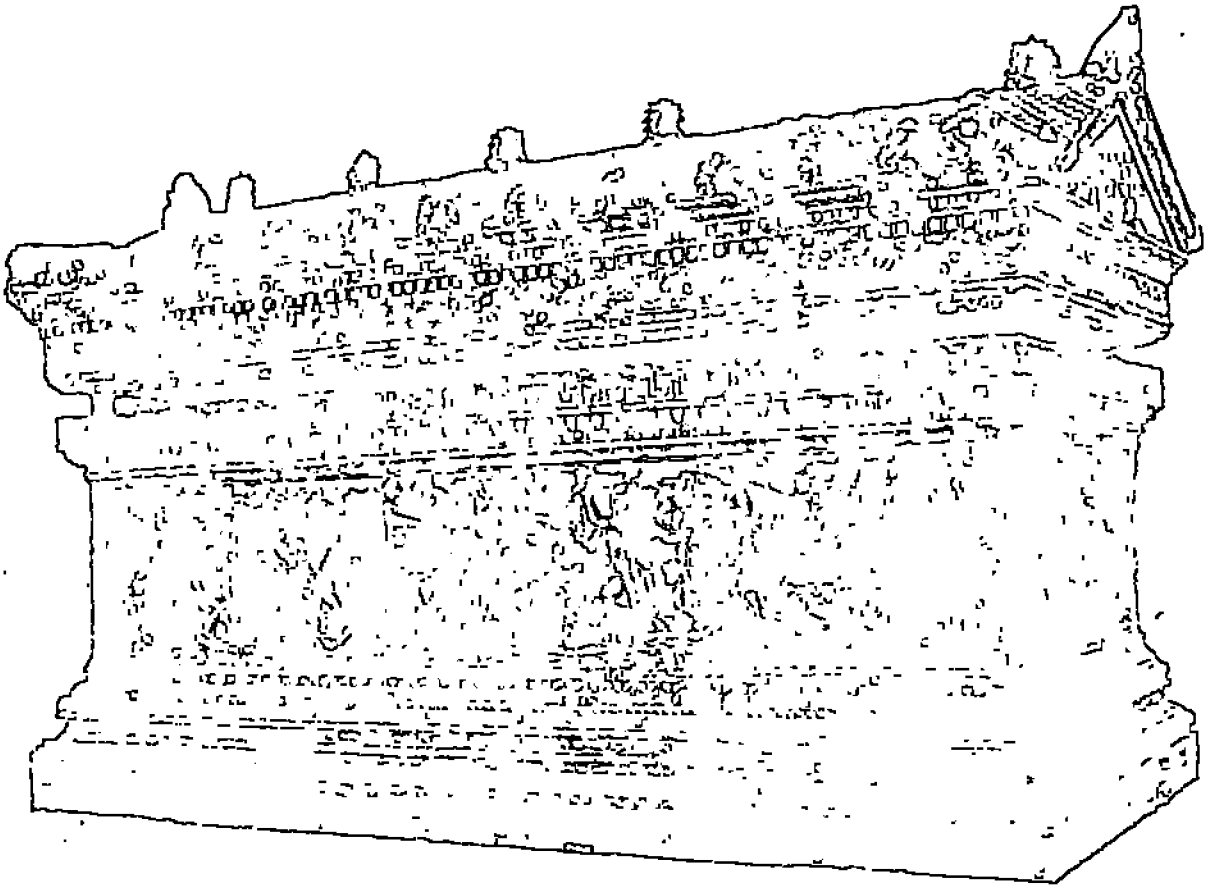

الرسم ١ : منظر عام لتابوت الاسكندر الكبير كما وجد في صيدا

الرسم ٢ : منظر قمة الغطاء من الجهة الجنوبية

الرسم ٣ : منظر احدى زوايا الغطاء وعليها شخص أسد ، وهي من الجهة الجنوبية الغربية

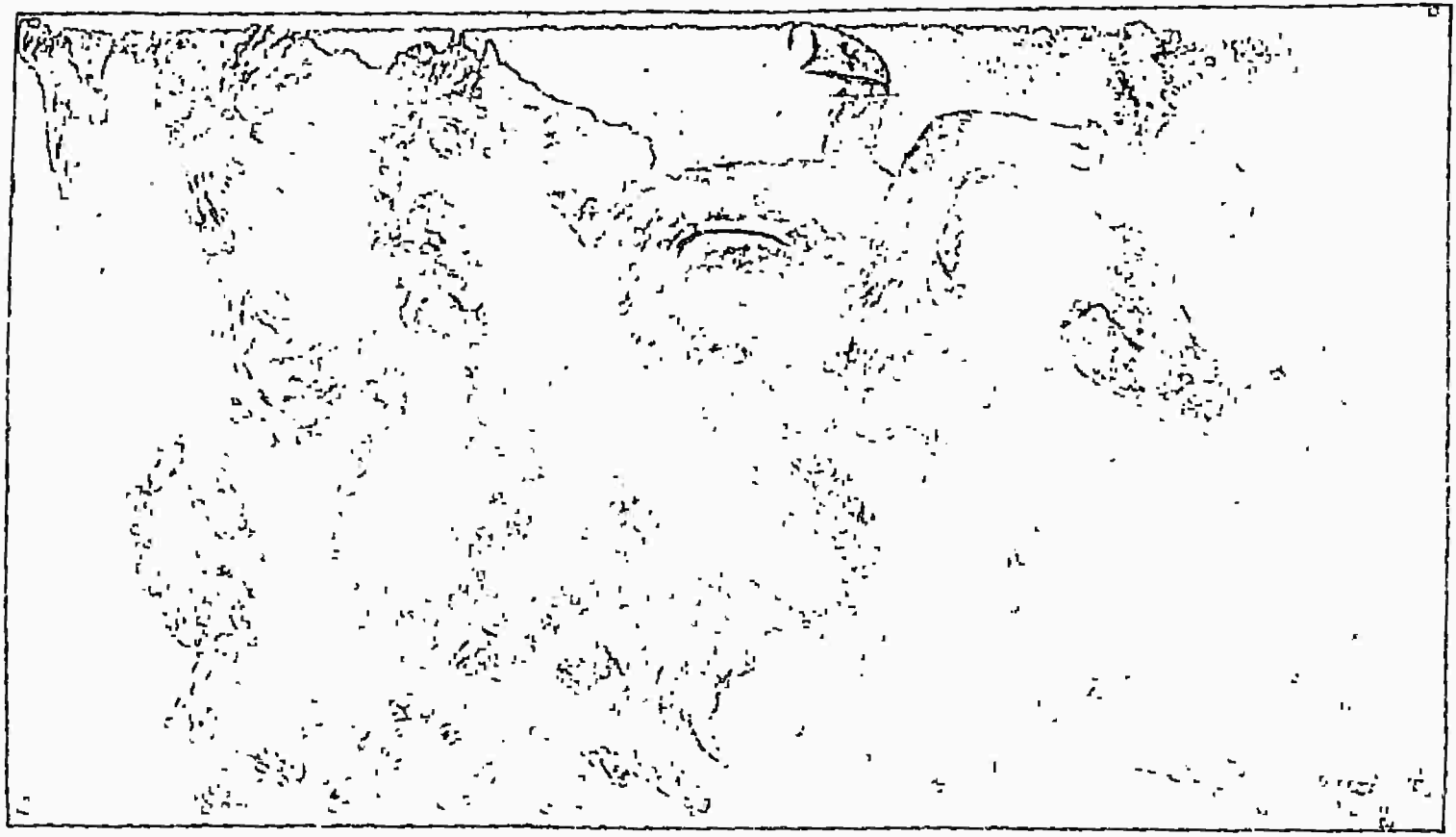

الرسم ٤ : مشهد من الجانب الشرقي للناووس يمثل الاسكندر في معركة اسوس وقد وثب جواده على فارس من الاعداء ، وداس فارساً آخر

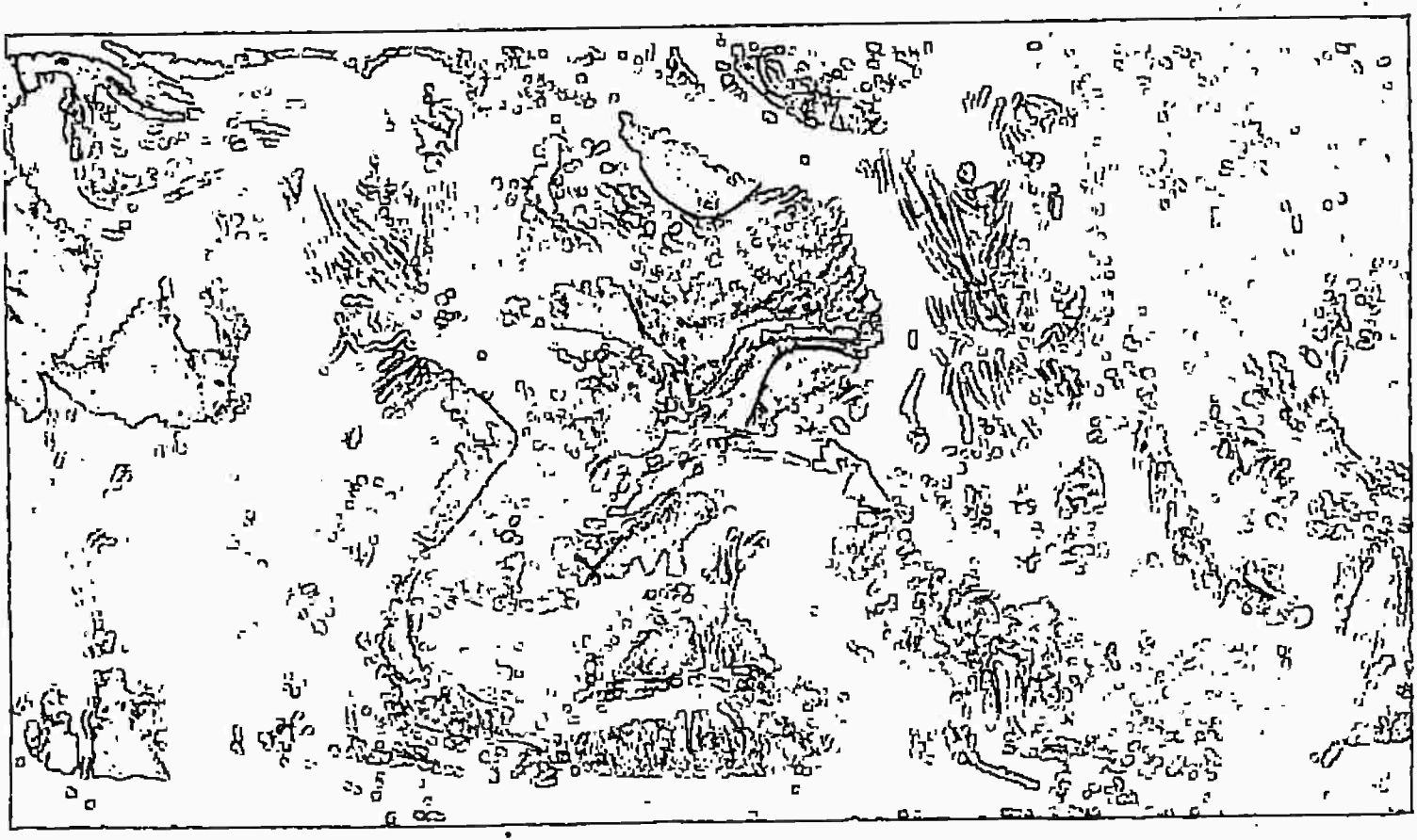

الرسم ٥ : مشهد من الجانب الغربي للناووس يمثل الاسكندر في صيد الوحوش الضارية وقد هجم ليخلّص رفيقه من الاسد